حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٩ (عدد يوليو – سبتمبر ٢٠٢١)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

جبلاوي "أولاد حارتنا" بين الراوي العليم والموروث العقدي

عزة محمد أبوالنجاة*

أستاذ الأدب والنقد الحديث المساعد- كلية البنات – جامعة عين شمس
Email: dr_azzaboulnaga@yahoo.com

المستخلص

وقع هذا البحث المعنون ب "جبلاوي "أولاد حارتنا" بين الراوي العليم والموروث العقائدي " في مقدمة، وتمهيد، ومبحث أساسي هو شخصية الجبلاوي بين استلهام الروائي للموروث العقائدي المعروف، وابتداع مادة خام من فكر الراوي وأيديولوجيته، وقد اتخذ منه محفوظ قناعا له بغيه توجيه مسار القيم في بلاده إلى وجهة يرضاها.

فبينتُ في **المقدمة** الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذا البحث ؛ وهو أنني أعدت قراءة أولاد حارتنا بعد حين من القراءة الأولى فثارت أسئلة نقدية جديدة فالتمست الإجابة عنها في كتابات العديد من النقاد، فلم أهتد إلى أنهم اجتمعوا على كلمة سواء، بل بدت آراؤهم شديدة التناقض في معظمها رغم رجوعهم إلى مناهج نقدية معيارية.

واستكمالا للجانب المعلوماتي فقد اهتممت في **التمهيد** بعرض بعض المعلومات الضرورية عن الرواية، وعرض لبعض جوانب الحركة النقدية حول هذا العمل المثير للجدل.

وبالرغم من اتفاق النقاد حول استلهام نجيب محفوظ لسير الأنبياء فإنهم اختلفوا اختلافا شديدا حول ماهية الجبلاوي ؛ وهي الشخصية التي لم يُفرد لها بحث مستقل في حدود علمي فوجهت اهتمامي لبحث الشخصية في إطار من المرجعية التراثية التي استلهمها محفوظ، وفي ضوء تقنية قصصية نقدية هي تقنية الراوي العليم.

فجاء القسم الثالث والرئيس من البحث ليبحث في شخصية الجبلاوي بين الموروث العقائدي، والراوي العليم، وقد استلهم نجيب محفوظ الموروث العقائدي في رسمه لشخصية الجبلاوي ملامح تدنو به من التطابق مع ذلك الموروث منها:

- اسم الجبلاوي
- صفاته من عدل، ورحمة، ومحبة، وعمر طويل جدا، وتفرده عن جميع الخلق، وقوة، وجبروت.
- مهمته العظمى في تكليف الرسل والأنبياء.

أما تقنية الراوي العليم الذي اتخذ منه نجيب محفوظ قناعا له ؛ فإن البحث يبين أن الراوي أعمل منظوره الخاص فخرج عن مسار حياة الأنبياء مبتدعا مادة جديدة من فكره وأيديولوجيته؛ ليعيد بناء منظومة القيم في مجتمعه، ذلك المجتمع الذي اهتم كثيرا بأن يرصد ملامحه، ويبين عوراته في كثير من أعماله، وخصوصا تلك التي تتصل بمرحلته الواقعية.

وهذا الراوي العليم أظهر للقارئ شخصية الجبلاوي من منظور يخالف منظور الموروث العقائدي فبين أنه شخصية:

- قاطع طريق، وشاذ من شذاذ الآفاق.

- سلبية
- ضعيفة
- لاوجود لها ولاتحقق في كثير من الأحيان.

وبتأمل ملامح شخصية الجبلاوي بين الموروث العقائدي والراوي العليم تبين لي أن الروائي وقد تقنع بشخصية الراوي العليم أظهرمن خلال منظوره الخاص: أن الدين لم يفلح في هداية البشرية، وأن العلم كذلك ممثلا في " عرفة " لم يجلب للبشرية سوى الخراب والدمار، وأنه على البشرية أن تبحث عن خلاصها في طريق ثالث: ترى هل هو التعادل بين العلم والدين ؟ أم نبذ كلا الطريقين وارتياد أفق جديد قد يظهره باحث جديد في بحث جديد ؟

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢١.

مقدمة

كثر الجدل حول رواية " أولاد حارتنا " كما لم يكثر حول رواية، واحتدم الخلاف حول شخصياتها أهي رموز للأنبياء؟ أم شخصيات للفتوات والمساكين الذين يمثلون الفئات المجتمعية التي كان يحرص محفوظ على الامتياح من حياتها وتصوير خلجاتها النفسية؟ ووصل الخلاف بين النقاد في هذه المسألة وغيرها حد التناقض التام، ولم يزل الحديث عن الرواية بعامة شخوصا وأحداثا وفكرة ومغزى يشغل النقاد متخذا مظهر كتاب، أو مقال، أو حوار إعلامي مُحْيِيا الحركة النقدية والفكرية حولها من جديد، وأحسب أن هذا البحث المعني بشخصية " الجبلاوي" بين " الراوي العليم " و " الموروث العقدي " يمكن له أن يقول كلمة تضيف شيئا إلى صرح الكتابات النقدية عن الرواية ، وأن يخرج بتوصيات مهمة تفتح الطريق لأحد الباحثين كي يبدأ من حيث انتهى الآخرون.

وللنقد أسئلة ضرورية قبل أن ألج إلى جوهر البحث أحاول تأملها والإجابة عنها؛ فمنها: لماذا ثار النقاد على الفقهاء والشيوخ الذين حثُّوا على مصادرة الرواية محتجين بأن للنقد رجاله، وأن الشيوخ ليسوا مؤهلين للحكم على عمل أدبي، وليس للدين أن يتسور على النقد؟[١]

لماذا عدّ هؤلاء النقاد نقد الأدب كهنوتا خاصا بهم لايجوز اقتحامه إلا من قبل المتخصصين؟ ولماذا عدّوا الآخرين – وهم رجال تربوا في أحضان التراث العربي – تنقصهم الذائقة الأدبية ولايحق لهم أن يتكلموا في الأدب؟ ولماذا نعت النقاد من اختلف معهم بالغباء؟ وألغوا غائية الأدب ورسالته التي يجب أن تكون للجماهير العريضة؟ وقصروه على فئة النقاد الذين اختلفوا اختلافا بيِّنا حول الرواية رغم تباين المناهج النقدية التي طبقوها على النص؟

إن للأدب غاية يجب أن تكون مفهومة وواضحة للمتلقين جميعا كما يرى الدكتور محمد عبد المطلب "..... وهذه الحرية المتاحة للمبدع لها حدودها التي يجب مراعاتها؛ فكل شخص حر في أن يقول مايشاء بشرط أن يكون مفهوما ممن يوجه إليهم الخطاب؛ لأن اللغة في الأصل همزة وصل ولن يتحقق ذلك إذا كان الخطاب غير مفهوم"[٢]، ولأن الغموض كان دائما من نصيب الشعر وليس الرواية أو المسرح نرى الدكتور محمد فتوح أحمد يقول حين يتحدث عن برقعة الفكرة - ولاضرر في الاستشهاد بمقولته رغم أن الحديث يتصل ببرقعة الفكرة في الشعر- " برقعة الفكرة الشعرية ضرورية ما شعر المبدع بضرورتها في تمثيل الدقائق والأسرار، لكنها تخرج عن حافة الضرر إذا أصبحت مطلوبة لذاتها، أو اتخذت ذريعة لستر خواء المحصول الشعري أو مقدمة لدعوى يحتمي بها الطالعون على درب الشعر كلما ارتفع صوت منصف بالتنبيه والتحذير "[٣]

إذن فمن حق الجماهير أن تقول رأيها في رسالة الأدب المفهومة حتى وإن برقعت الفكرة؛ وإلا فالأدب المُلْغز الحافل بالشفرات المستعصية على الحل لاجمهور له، وقد يجد من يحل شفراته فيزيد الأمر تعقيدا وإلغازا؛ ومن أجل هذا وجد ما عرف ب"نقد النقد" وهو – في رأيي- محاولات تقييمية تحاول أن تسدد خطى النقد فيما يقوم به.

ومن الأسئلة التي تطرح نفسها أيضا: لماذا عمد محفوظ عمدا إلى النهل من قصص الأنبياء إلى الحد الذي يستحيل معه نكران ذلك عند النقاد – كما سنرى - ثم عاد وأنكر أنه يقصد الأنبياء[٤]، وأن فِئيته هم فتوات حارة من الحارات المصرية ! مصورا كل من قرأ وفسَّر رموزه الشفافة التي لاتحتمل اللبس أو التأويل بأن الصواب قد جانبه؟

وإذا كان همُّ محفوظ الحديثَ عن مصلحين ومفسدين بوجه عام، أو طرح ثنائية الخير والشر، أو الظلم والعدل؛ فلماذا أتى بسير الأنبياء، وأحداث عاشوها، بل وأسماء مشابهة لأسمائهم أو ألقابهم في روايته؟

أتصور أنه لو أراد أن يبني رموزا لشخصيات سياسية، وأن يمارس نوعا من الإسقاط السياسي لما احتاج إلى استلهام قصص الأنبياء مرتبة – في معظمها – وفقا للأحداث الكبرى في حيواتهم القصيرة، من غير إغفال للمادة البكر التي أضافها نجيب محفوظ إلى روايته المثيرة للجدل، وأرى أن كلامه في هذا السياق يحتاج إلى مراجعة حيث يقول: " إن الرواية تصور حارة مصرية تماما، ووقفا قديما لصالح أبناء الحارة يتصارع عليه فريقان أحدهما شرير، والآخر طيب "[٥]

أما شخصية "الجبلاوي" التي يتوقف البحث عندها ما بين راو عليم، وموروث عقدي؛ فترى الباحثة أنها أكثر الشخصيات إثارة للجدل في رمزها؛ فهل ترمز للدين؟ أم ترمز للذات الإلهية؟ وما التطابق بين ماتقوم به من سمات شخصية وأحداث تقوم بها وبين الرمز / الدين، أو الرمز/ الذات الإلهية؟ وهنا أحاول أن أبين موقف محفوظ من الدين نفسه من خلال أحداث الرواية وموقع الجبلاوي فيها دون شبهة محاكمة أو محاسبة لفكره؛ فالكاتب حر في رؤيته للعالم.

ويستخدم البحث المنهج الوصفي في طرحه لشخصية الجبلاوي بين راو عليم وموروث عقدي حيث يقع في الأجزاء الآتية:

أولا: المقدمة:

وفيها أعرض للفكرة الأساس التي يقوم عليها البحث وهو موقع شخصية الجبلاوي المثيرة للجدل بين راو عليم وموروث عقدي عتيد.

ثانيا:التمهيد ويقع في جزأين:

يتناول الأول في إيجاز ظروف كتابة الرواية، ويتناول الثاني الحركة النقدية حول الرواية وأصداء نشرها.

أما القسم الثالث

فيعالج بالمنهج الوصفي موضوع البحث الأساس وهو شخصية الجبلاوي بين الراوي العليم والموروث العقائدي، فيتوقف عند قضية الراوي العليم قاصدا فهم أيديولوجية نجيب محفوظ التي ساقها على لسان راويه باعتباره قناعا له، راصدا ما قدم محفوظ من مادة خام بكر امتاحها من ثقافته العريضة، ومن فكره الخاص، إلى جانب تلك المادة الغنية التي استلهمها من المروث العقدي وأدت به إلى المأزق الكارثي الذي كاد يفقد حياته بسببه، بغية الإجابة عن السؤال الكبير: هل أراد محفوظ حقا أن يخلخل منظومة القيم في مجتمعه، وأن يعين الناس على النظر إلى مواطئ أقدامهم؟ هل أفلح الدين في سد حاجاتهم إلى العدالة والحب؟ هل حل العلم محله؟ أم أن من الأفضل أن تختار البشرية لنفسها طريقا وسطا بينهما؟

رابعا: حوار مع ناقد:

وقد رأيت ألا أختم البحث دون التعريج على منظور خاص بالدكتور أبوالقاسم أحمد رشوان ممثلا لوجهة النظر التي ترى في أولاد حارتنا عملا دعويا.

ويلي ذلك الخاتمة :

حيث يعرض البحث فيها للنتائج والتوصيات.

ثانيا : التمهيد :

١- حول رواية أولاد حارتنا:

يجدر بالباحث حين ينظر إلى عمل شغل الناس مثل " أولاد حارتنا" أن يحيط بالملابسات التي أحاطت بولادة هذا العمل الأدبي الذي يقترب من الصفحات الستمائة ، وهو بلاشك سيجد نفسه وقد اشترك مع الباحثين في الامتياح من الفيض المعلوماتي حول الرواية بيد أن المقام يضطر الباحث إلى الاجتزاء ببضع فقرات ضرورية قبل الشروع في موضوع البحث الأساس وفي ذلك يقول نجيب محفوظ نفسه:

" أنهيت الثلاثية في أبريل عام ١٩٥٢، وكانت أمامي سبعة موضوعات لروايات أخرى في نفس الاتجاه الواقعي النقدي، وإذا بثورة ١٩٥٢ تقوم فتموت معها الموضوعات السبعة من حيث الدافع لكتابتها وأذكر أني عرضت هذه الموضوعات على عبد الرحمن الشرقاوي، وبعض الزملاء الأدباء ودهشوا لأني لم أكتبها؛ فما أكثر الذين بدأوا بعد الثورة ينقدون في أعمالهم الأدبية مجتمع ما قبل الثورة، أما أنا فقد حدث التوقف الثالث في حياتي الأدبية؛ إذ حينما ذهب المجتمع القديم ذهبت معه كل رغبة في نفسي لنقده.. وظننت أنني انتهيت أدبيا، ولم يعد لدي ما أقوله، أو أكتبه، وأعلنت ذلك وكنت مخلصا فيه، ولم يكن الأمر دعاية كما ظن البعض ، وظللت على هذه الحال من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٥٧ لم أكتب كلمة واحدة ، ولم تنبعث في نفسي رغبة في الكتابة، وكنت أعتبر المسألة منتهية تماما حتى وجدتني أكتب "أولاد حارتنا" وأنشرها سنة ١٩٥٩ "[٦]

وحديث محفوظ هنا عن النص الكامل الذي كتبه بعد الثورة ونشره؛ لكنه لم يشر إلى نشره في الأهرام مفرّقا وإلى إعمالِه قلمَه فيما كان يقدمه من فصول متفرقة؛ وفي ذلك يقول الدكتور الطاهر أحمد مكي:

" إن النّص الذي بين أيدينا، وصدر عن دار الآداب في بيروت، ونشرته جريدة "الأهرام" مُنَجّما عام ١٩٥٩ أصابه شيء ما من التعديل كثيرا أو قليلا لاأحد يدري، ذلك أن محمد حسنين هيكل، وكان يومها رئيس تحرير الأهرام، رأى في صورته الأولى التي خطها الكاتب أكثر مما تحتمله صحيفة يومية في بلد تحاصره ظروف قاهرة، وأحوال ضاغطة من كل لون وجانب؛ فرده إلى صاحبه ليخفف من قساوته، أو جرأته، ماذا خفف أو عدل؟ وهل كانت الأسماء أكثر وضوحا، والرموز أقل غموضا، والأفكار أقل غموضا، والأفكار أبعد تطرفا... عبثا حاولت أن أصل إلى النص الأصلي "[٧]

وسكنت ثائرة النقد زمنا ثم عادت إلى الظهور بعد أن حصل نجيب محفوظ على جائزة نوبل التي نبهت مجددا إلى الرواية وموضوعها " غير العادي" في الفقرة الآتية:" فموضوع الرواية غير العادي "أولاد حارتنا" ١٩٥٩ هو البحث الأزلي للإنسان عن القيم الروحية: فآدم وحواء، وموسى وعيسى، وغيرهم من الأنبياء والرسل بالإضافة إلى العالم المحدث يظهرون في تخفٍّ لطيف"[٨]

لكن نفرا غير قليل من النقاد ربطوا بين الرواية والثنائيات التي تطرحها ومجتمع ما بعد ثورة يوليو، وفسروا انقطاع الكاتب فترة أعوام سبعة على أنه احتشاد لكتابة نقد موجه إلى الثورة ورجالها، وهو رأي ظنيّ قد تعوزه الدقة؛ فما تطرحه الرواية من أوجه للصراع بين الخير والشر، أو الحق والباطل، أو العدل والظلم يمكن طرحه في كل زمان ومكان من عصور البشرية بعامة؛ فتلك قضايا أزلية عالمية يمكن للكاتب أن يطرحها دونما حاجة إلى انقطاع يدوم عددا من السنوات وهو الطرح الذي قال به أحد دارسي رواية "أولاد حارتنا" حين بيّن الظروف التي أدت إلى احتشاد نجيب محفوظ لكتابة الرواية ومنها الثورة الشعبية عام ١٩١٩، وتخرجه في قسم الفلسفة عام ١٩٣٤، وتردده بين الفلسفة والأدب، ومرور

سبعة أعوام على ثورة يوليو، كل هذا أسهم في رأيه في خلق "خيط خفي" يصل بينها جميعا ويسمى بمحنة الأديب [٩]:

" وهذه المحنة – الولادة – قد يقدر لها أن تستمر سنوات يكون للتجربة الأدبية وما تستقيه من المؤثرات حركة مملوءة بالانعطافات، ولكن يفترض أن الأديب والفنان يتجاوزان عصرهما ويريان إلى ما هو أبعد وأكثر حقيقة، فلايقنعان بالحاضر، ولكن يكون رجل الدين والسياسة مزاحمين للأديب أو المثقف في مجتمعه الذي يريد إعادة خلق قيمه نحو الأفضل"[١٠]

وقد قسَّم نجيب محفوظ روايته إلى فصول هي على التوالي:

- أدهم
- جبل
- رفاعة
- قاسم
- عرفة

وقد ارتضى النقاد - في معظمهم - اعتبار هذه الأسماء رموزا للأنبياء ليس في الأحداث المهمة التي أبرزتها الرواية والتي تكاد تتطابق في معظمها مع قصص الأنبياء فحسب بل في الإحالة الصوتية أيضا فأدهم يحيل صوتيا إلى "آدم"، و"جبل" يشير إلى الجبل الذي تجلى عنده الله لموسى، ورفاعة مرتبط بحادثة رفع عيسى إلى السماء، و"قاسم" يشير إلى كنية النبي – صلى الله عليه وسلم – فكنيته التي غلبت هي أبو القاسم ".... فأدهم لايختلف كثيرا عن آدم على المستوى الصوتي، وإدريس شديد القرب من إبليس، أما جبل فقد انتقل فيه المؤلف من أسلوب الجناس الناقص في التشفير إلى طريقة المجاز المرسل المكاني؛ لأن مشهد الجبل الذي تجلى فيه الرب لموسى هو الذي يميز رسالته.... وعندما نصل إلى رفاعة نعود إلى لون جديد من الاشتقاق الذي لايقوم على جذر التسمية وإنما على أبرز معالمها؛ فنظير المسيح الذي رفع إلى السماء يتسمى بما يشير إلى هذا الرفع، وتداعب كلمة قاسم الحقيقة التاريخية من جانبين: أحدهما لأن محمدا كان يدعى أبا القاسم..... والآخر طبيعة رسالته المميزة لمن سبقه لأنها قاسم مشترك بين جميع الأجناس والعصور"[١١]

أما شخصية الجبلاوي التي يتوقف البحث عندها فلم يخصص لها نجيب محفوظ فصلا مستقلا؛ وهذا في تقديري يعود إلى موقع شخصية الجبلاوي من الوجود الإنساني بعامة فهو مسيطر ومهيمن على الحارة – التي ترمز للدنيا – في كل عصورها في عهد أدهم، وجبل، ورفاعة، وقاسم ، وهي عهود متطاولة، وأحقاب عريضة طوت من طوت في أحشائها وهذا ما يحيل إلى رمزية تلك الشخصية العجيبة التي عُمِّرت فوق ما يعمر البشر، واختلف الناس حولها في الحارة، كما اختلف النقاد في إحالة الرمز: أهو يحيل إلى الإله؟ أم يحيل إلى الدين بشكل عام؟ ولعظم هذه الشخصية وخطرها وبأسها لم يفرد لها محفوظ فصلا مستقلا؛ ولهذا دلالته التي تتجاوز الشكل والظاهر إلى المضمون؛ فهي الشخصية المهيمنة، والمسيطرة، والآمرة، والمسيرة لكل مقاليد الأمور في كل العصور، وسوف يجلو البحث ذلك في متنه بعد استعراض يسير للحركة النقدية حول هذه الرواية المثيرة للجدل.

٢- الحركة النقدية حول "أولاد حارتنا"

ليس الهدف من هذا الطرح هنا استعراض ما قيل حول رواية "أولاد حارتنا"؛ وإنما عرض وجهتي النظر اللتين أحاطتا بالرواية بغية إتمام المعلومات؛ فلا يعقل أن يُكتب بحث عن الرواية دون خوض في هذه الجزئية.

وبداية أحب أن أشير إلى تناول عدد من الرسائل الجامعية وبحث منفرد لهذه القضية ألا وهي الحركة النقدية حول "أولاد حارتنا" منها:

- " تلقي أولاد حارتنا في النقد العربي الحديث – إعداد تسنيم عماد صالح شيخ – الزرقاء – الأردن – عمادة البحث العلمي والدراسات العليا في الجامعة الهاشمية – ٢٠١١
- رواية أولاد حارتنا بين التفسير الديني والتحليل الفني – د.وجيه يعقوب السيد – مجلة كلية دار العلوم.
- الرواية من منظور التلقي النقدي مع نموذج تحليلي حول رواية أولاد حارتنا – سعيد عمري – كلية الآداب ظهر المهراز- فاس – ٢٠٠٩.

وهذه الدراسات اهتمت بما قيل حول الرواية من مناظير شتى لم تجتمع فيما بينها على كلمة سواء ! رغم إيغالها في تطبيق الأسس النقدية المعتمدة كل وفق منظوره !

وما يعنيني هنا أن أورد وجهتى النظراللتين تتناولان الرواية في إلمامة سريعة ؛ فمثلا يرى الدكتور حامد أبو أحمد أن الرواية " عمل فني عظيم له قوانينه الخاصة ونظمه المستقلة "[١٢]، ويرى الدكتور الطاهر مكي أن محفوظ وظف ثقافته الدينية في هذه الرواية " توظيفا فنيا عاليا"[١٣] وتفترض غادة الريدي أن الرواية " تحتل منزلة متفردة بين أعمال نجيب محفوظ ليس بسبب قيمتها الفنية الرفيعة التي لاشك فيها، ولكن بسبب ما أثارته من جدل نقدي حاد"[١٤] في حين يرى الدكتور صلاح فضل في أولاد حارتنا "أمثولة للحق والعدالة"[١٥]

بينما يرى آخرون أن الرمز مبذول للقارئ وبسيط إلى الحد الذي يمكن لصغار التلاميذ أن يفهموه "..... إنها المباشرة التي قضت على أولاد حارتنا بالسكتة؛ فمن ناحية ثارت المؤسسات الدينية لأن رمز الإله "الجبلاوي"، ورمز الأنبياء.... يسهل على أي تلميذ في الإعدادي أن يستحضر المرموز له "[١٦]، بل ويرى صاحب المقال أن الكاتب مجرد ناقل قد نسي صفة الإبداع إلى غير رجعة وطفق يردد ما يقوله الآخرون:".... هل هناك دليل أقوى من ذلك يقطع بأن الكاتب تناسى صفته الأصلية كمبدع وأصر على أن يكون ناقلا ومرددا ما جاء بالفكر العبراني"[١٧]

أما الروائي محمد قطب فيرى في معرض تقييمه لمسلك مصادرة الرواية من قبل الساسة "..... أن اللجوء للمصادرة يأتي بهدف معاكس، وعلى النقاد أن يوضحوا بالدرس الموضوعي والفني الخلل الفكري الذي تنبني عليه مثل هذه الأعمال دون التعلل بقداسة أو تابوهات راسخة "[١٨]

ولاأحبّ أن أطيل؛ فلم تخرج آراء النقاد – في معظمها – عن وجهتي النظر سالفتي الذكر، وكل يحشد لرأيه من الحجج والبراهين التي تؤيد ما يقول؛ ففيم إذن معايرتهم الشيوخ بأنهم ليسوا من أهل التخصص وهم الذين لم يقرِّبْهم التخصص بعضهم من بعض؟ ولم يمنعهم من التناقض؟!!

وبعد هذا التمهيد الضروري لملابسات ولادة الرواية، والحركة النقدية حولها في هذه الإلمامة اليسيرة استكمالا للجانب المعلوماتي؛ فإنه يتعين علي الباحثة الالتفات إلى موضوع البحث الرئيس وهو القسم الثالث من هذا البحث:

ثالثا: شخصية الجبلاوى بين الراوى العليم والموروث العقدى:

وهنا يتعين أن أقف وقفة يسيرة عند أهم مصطلح نقدي في هذا البحث وهو مصطلح "الراوي" في مفهومه، وتطوره التاريخي، وأنواعه، ثم أتوقف مليا عند الراوي العليم الذي يتعامل البحث معه بوصفه قناعا للروائي يسوق إلينا أفكاره، ويعرض أيديولوجيته.

١- مفهوم الراوى وتطوره تاريخيا:

عُنِي النقاد في الدرس النقدي الحديث بتحديد مفهوم "الراوي"، كما عُنُوا بإبراز تطور ذلك المفهوم عبر الحقب الزمنية شرقا وغربا، فألم بعضهم بمفهومه – عربيا – منذ أن كان الراوي جزءا من الرواية الشفهية حتى عصر الكتابة، وغربيا منذ أفلاطون وأرسطو حتى العصر الحديث مبرزين مفاهيم المصطلح لرؤوس المدرسة الأنجلو سكسونية، والمدرسة الفرنسية مع حرص شديد على تحديد نقاط الاتفاق ونقاط الاختلاف بين النقاد.

ومن الطبيعي – والحالة هذه – أن يعثر القارئ على أسماء لامعة في نقد السرد الحديث، وبخاصة الغربي، كجيرار جينيت، وتزفيتان تودوروف، وميخائيل باختين.... وغيرهم.

ومن الطبيعي أن تمتلئ كتب النقد التي عنيت بالسرد عموما، وبتقنية الراوي خصوصا بمصطلحات تخص هذه التقنية وشرحها وبيان المصطلحات القريبة منها بل والتفرقة بين المصطلحات الملتبسة والمتشابهة ؛ فمن هذه المصطلحات الموقع، والجهة، والمسافة، ووجهة النظر، والتبئير، وزاوية الرؤية.

وكل هذه المصطلحات تتعلق بتقنية الراوي على أساس أنه عنصر أساسي مهم يجب ألا يقارن ببقية عناصر الحكي.

ومادام النقد الحديث قد أولى عنايته تقنية الراوي فكان لابد من تصنيف الرواة إلى نماذج، لكل نموذج علامات تدل على وجوده في النص؛ ومن ثم تأثيره في بنائه فرأينا: الراوي العليم، والعليم المحايد، والراوي الشاهد، والراوي الظاهر... كما سيفصل البحث هذا الإجمال.

مفهوم الراوى:

عدَّ بعض النقاد الراوي هو المؤلف الضمني[١٩] "Implied Author" وعُرّف بأنه " الأداة الفنية التي يوظفها الكاتب لبناء سرده تبعا لوجهة نظر خاصة، وتتشكل من خلاله الرسالة الموجهة إلى المروي له "[٢٠]؛ فالراوي – بهذا المعنى – ليس عالما أو مؤرخا يقدم ملاحظاته، أو تقريره من دون وجهة نظر Point Of View بل يصوغ حكايته من خلال وجهة النظر هذه التي أطلق عليها من قبل بعض النقاد " المنظور "، ومن قبل بعضهم الآخر " التبئير "، وفي قول ثالث " زاوية النظر"[٢١]

والراوي عنصر سردي قد لايضاهيه عنصر آخر؛ لأنه قناع يختفي وراءه الكاتب؛ ومن دونه لايمكن فهم أفكار النص واتجاهاته " والواقع أن الراوي وإن كان عنصرا من عناصر العمل السردي الروائي فهو، ومن حيث هو راو لايمكن وضعه على مستوى التعادل الوظيفي، مع بقية العناصر المكونة لهذا العمل؛ فالراوي – كما نعلم – صوت يختبئ خلفه الكاتب؛ ولهذا فهو في علاقته بما يروي عنصر مميز مختلف الوظيفة، فهو الذي يمسك بكل لعبة القص "[٢٢]

ويرتبط الراوي عبر انتقاء مادته من الواقع بموقع، وجهة، ومسافة وهو ما يسمى بالرؤية [٢٣]، وعن طريق الراوي وتقنيته الأهم نستطيع قراءة الأيديولوجيا فنقرأ "الأيديولوجي بقراءة الفني "[٢٤]

ويعنيني - هنا – بالدرجة الأولى الكشف عن هذا الأيديولوجي بالنظر إلى الفني.

ولقد أفاض النقاد طويلا في تحليل " وجهة النظر " أو " المنظور " كلما حللوا تقنية الراوي، فقد ارتبطت وجهة النظر " بالنظرة الحديثة إلى الرواية بوصفها وحدة عضوية متكاملة من ناحية وصدى لدور الراوي أو الروائي من ناحية أخرى "[٢٥]

٢- الراوي: التاريخ والتطور

تكاد لاتخلو دراسة عن الراوي بصفة خاصة، وتقنيات السرد بصفة عامة، من حديث عن تاريخ الرواة منذ أن كانت الرواية شفهية يقوم فيها الراوي بدور محدود، وقد فصل القول في ذلك الدكتور عبد الرحيم الكردي في كتابه المعروف " الراوي والنص القصصي "[٢٦]، فعرض للراوي التراثي، وأسماء بعض الرواة المشاهير كما هو الحال عند عيسى بن هشام، وشهر زاد.... وغيرهما ثم عرّج على أفلاطون وأرسطو، وانتقل إلى العصر الحديث حيث توقف عند هنري جيمس، وبيتش، ولوبوك، ثم الشكليين، والبنيويين (بروب – وباختين – وجيرار جينيت) ثم الأسلوبيين [٢٧]

وخلص الدكتور إلى أن محور الخلاف الحقيقي بين هذه المدارس لم " يتطرق إلى ماهية الراوي إلا نادرا؛ فالراوي الذي تحدث عنه باختين وجيرار جينيت وليتش هو ذاته الذي تحدث عنه أفلاطون، وإنما كان محور الخلاف الحقيقي في أمرين: أولهما: الأثر الذي يتركه حضور الراوي أو غيابه في النص، والثاني: المدخل الذي ينبغي ولوجه عند البحث عن الراوي "[٢٨]، والمراد بغياب الراوي – فيما أظن – قلة تأثيره.

أما الراوي عند المدرسة البنيوية ف " مجرد عنصر أو خيط في نسيج البناء الفني الكلي"[٢٩]، وعند المدرسة الأسلوبية فهو " ليس أكثر من موقع خطابي "[٣٠]

٣- أنواع الرواة، والراوي العليم:

تَعَدَّد الرواة بتعدد تأثيرهم في البناء القصصي؛ إذ يتم التصنيف وفقا لهذا التأثير، كما تعددت المصطلحات التي تصنفهم؛ فوجد الراوي العليم، والراوي المراقب، والراوي المشارك في الأحداث، والراوي الذي يعكس الأحداث [٣١]

وقد قسم نقاد آخرون أنواع الرواة وفقا للظهور والاختفاء: فهناك راو ظاهر، وراو غير ظاهر، وتبعا لدرجة الثقة: فهناك راو ثقة، وراو غير موثوق به، وهو ما يعني بدوره تقسيم الراوي إلى راو عليم منقح، وراو عليم غير منقح... فضلا عن الراوي المشارك، والراوي غير المشارك، والراوي من الخارج، والراوي من الخارج....[٣٢]

على أن أهم مافي تقنية الراوي العلاقة بينه وبين البناء القصصي حتى لايتحول الأمر إلى مجرد تصنيفات فارغة من القيمة: " فهناك علاقة بين الراوي الظاهر والبناء المؤطر، وهناك علاقة بين الراوي العليم المنقح، والبناء المفكك، وهناك علاقة بين الراوي المستتر وأسلوب العرض، كما أن هناك ارتباطا بين أسلوب التقرير السردي، والراوي الظاهر.."[٣٣]

لكن أهم راو يسلط البحث عليه الضوء هو:

الراوي العليم:

يمتاز الراوي العليم Omniscient والموجود في كل مكان Omnipresent بأنه " كلي المعرفة، يوزع الأدوار على الشخصيات، ويخلق الوقائع معلقا على الأحداث التي حدثت، والتي كان من الممكن أن تحدث بشكل آخر في حين يظل هو واقفا في مكان ما محتفظا لنفسه بحق التعليق على ماخلق (بطريق غير مباشر)، ونلاحظ أيضا أن هذا الراوي يتسم بالثقافة العميقة، وبالقدرة على التصوير وعلى اختزال التاريخ في أشكال الناس

وعاداتهم وزمانهم "[٣٤]، وربما كان فعل " الحَكّي" أوقع من فعل " الخلق " الذي ورد في النَّص.

ويحبذ بعض النقاد هذا النوع من الرواة ويراه ميزة كبيرة حيث ذهب E M Forester إلى أن " الراوي العالم بكل شيء هو امتياز ينبغي ألا يحرم منه الروائي؛ فعن طريقه يمتلك أسرار العالم كافة وهو امتياز ينبغي ألا يحرم منه "[٣٥]

ويسمي واين بوث Wayne Booth الراوي العليم ب" العارف بكل شيء " وأهم مظاهر المعرفة لديه " المعرفة بما يدور داخل الشخصيات " ويطلق عليه الراوي الواعي بذاته [٣٦]

أما جان بويون الفرنسي Jean Pouillon فقد سمّى الراوى العليم الرؤية من الخلف Vision From Behind، والرؤية من الخلف شبيهة بالتبئير في درجة الصفر، وبوجهة النظر المحيطة بكل شيء، والسارد فيها يتحدث عن أشياء أكثر مما يعرفها أي واحد من الشخصيات "[٣٧]

وتظل سلطة الراوي العليم لدى بعض النقاد " شديدة الهيمنة على زمام الحكي "[٣٨]، ويتميز الراوي العليم " بقدرته العالية على استبطان الشخصيات والغوص في دخائلها وأسرارها الدفينة " [٣٩]

وبعد فقد أوضحت في إلمامة يسيرة مفهوم الراوي من حيث كونه تقنية أساسية يتم من خلالها الولوج داخل النص القصصي بغية الكشف عن تأثير الراوي في هذا البناء، وعرجت على دور الراوي التاريخي قديما منذ أن وجد فن الحكي ومنذ أن كانت الرواية شفهية حتى عصر الكتابة، وبينت نظرة النقاد عبر مدارسهم النقدية المختلفة إلى دور الراوي ووظيفته، ثم عرضت لأنواع الراوي المختلفة: فهناك الراوي العليم، وهناك الراوي الشاهد، وهناك الراوي الظاهر، وهناك الراوي المستتر... ثم أفردت مساحة للراوي العليم وصفاته الخاصة في النص الأدبي وملامحه المميزة لله وأولها أنه مدخل لفهم أيديولوجيا النص التي يبسطها الراوي / قناع الروائي عن طريق وجهة النظر أو " المنظور الروائي".

٤- شخصية الجبلاوى وتطابقها مع الموروث العقدى:

- التطابق في شخصية الجبلاوى بين اسمه والصفة الإلاهية الأولى " الخلق "

اجتهد النقاد أيّما اجتهاد في إثبات عدم التطابق بين شخصية الجبلاوي والذات الإلاهية، وأخذوا يحصون عدد الألفاظ الدالة على لفظة " الإله " و"الله " في الرواية لإثبات أن الكاتب لم يكن يقصد أبدا أن " الجبلاوي " هو نفسه الذات الإلاهية.

لكن الباحث - الذي ليس من سلطته محاسبة القاص- محكوم بما سطرت يد الكاتب في روايته التي تبدو فيها شخصية الجبلاوي أدنى إلى التطابق مع الموروث العقدي في بعض أجزاء الرواية المهمة والرئيسة ، كما تأتي في مواضع أخرى من وضع الراوي العليم الذي يريد أن يغير منظومة القيم في بلاده

وأول ما يطالعنا هو اسم الجبلاوي الذي يحيل إلى المعنى المعجمي من " جَبَلَ " بمعنى خلق، ثم يكتب مانصه:

(كان مكان حارتنا خلاء، فهو امتداد لصحراء المقطم الذي يربض في الأفق، ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذي شيده الجبلاوي كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطريق، كان سوره الكبير العالي يتحلق مساحة واسعة، نصفها الغربي حديقة)[٤٠] فنجد النص السابق يلتقط من الذاكرة التراثية النص الآتي من سفر التكوين:

(١ في البدء خلق الله السموات والأرض ٢ وكانت الأرض خربة وخالية على وجه الغمر ظلمة وروح الله يَرِّف على وجه المياه ٣ وقال الله ليكن نور فكان نور ٤ ورأى الله النور أنه حسن)[٤٢]

وفي النص التالي إشارة إلى عمره المديد المحير للعقول الذي امتد من قبل خلق آدم حتى ما بعد عهد قاسم وهو عمر رمزي بطبيعة الحال لكنه يشير إلى غير إنسان:

(... وجَدُّنا هذا لغز من الألغاز، عمر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره، واعتزل في بيته الكبير منذ عهد بعيد، فلم يره منذ اعتزاله أحد، وقصة اعتزاله وكبره مما يحير العقول)[٤٢]

ثم ترد هذه الإشارة على لسان عتريس نقلا عن جبل حين التقى الجبلاوي:

"قال إنه ليس كمثله أحد في حارتنا ولافي الناس جميعا "[٤٣] وهذا يحيل إلى الآية الكريمة من سورة الشورى: "..... ليس كمثله شيء وهو السميع البصير "[٤٤]

وما سبق بعض إشارات لأمثلة عديدة تؤدي المعنى السابق من وجود درجة تطابق بين الرمز والمرموز له في أولاد حارتنا.

- **<u>التطابق بين شخصية الجبلاوى ومهمة تكليف الأنبياء في الموروث العقدى:</u>**

ومهمة تكليف الأنبياء في الموروث العقدي لا يقوم بها إلا مكلّف واحد، وهنا يبدو الرمز في شخصية الجبلاوي قريبا جدا إلى حد التطابق الحرفي مع المكلّف الأول؛ فهذه علامة مهمة من العلامات في الرواية التي يدنو بها الرمز من التطابق في شخصية الجبلاوي.

ومن ذلك قول الجبلاوي لأبنائه:

" وقد وقع اختياري على أخيكم أدهم ليدير الوقف تحت إشرافي "[٤٥]، وهو ما يحيل إلى قوله تعالى " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة "[٤٦]

ومن ذلك لقاؤه بالأنبياء الثلاثة في ظلمة الخلاء، فها هو يلتقي بجبل / موسى عند الجبل ويلتقي برفاعة في الخلاء، وبقاسم أيضا عن طريق خادمه " قنديل" وفقا للترتيب الآتي:

<u>جبل:</u>

نرى ذلك في قول جبل واصفا لقاءه بالجبلاوي "..... مضيت في تجوالي في ظلام دامس، فحتى النجوم توارت وراء السحب، وما أدري إلا وأنا أوشك أن أصطدم بشبح هائل، توهمته في أول الأمر أحد الفتوات، ولكنه بدا لي شخصا **<u>ليس كمثله أحد</u>** في حارتنا، ولافي الناس جميعا، طويلا وعريضا **<u>كأنه جبل</u>**، فامتلأت رهبة، وهممت بالتراجع، وإذا به يقول بصوت عجيب "قف ياجبل" فتسمرت في مكاني "[٤٧]، وحكاية الجبل مع موسى معروفة في التراث وقد أبان القرآن الكريم ذلك في أكثر من آية منها " ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا..."[٤٨]

أما رسالة الجبلاوي لموسى فهي **<u>القوة</u>** التي تهزم البغي، **<u>وإحقاق الحق</u>**، **<u>وإسباغ العدل</u>** ".... وما أسرتك إلا أسرتي، وهم لهم في وقفي حق يجب أن يأخذوه، ولهم كرامة يجب أن تصان، وحياة يجب أن تكون جميلة، فسألته في وفرة حماس أضاءت الظلام:وكيف السبيل إلى ذلك؟ فقال: **<u>بالقوة</u>** تهزمون البغي، وتأخذون الحق، وتحيون الحياة الطيبة، فهتفت من أعماق قلبي سنكون أقوياء، فقال:وسيكون النجاح حليفكم "[٤٩]

ويحيل النَّص السابق إلى أحد نصوص العهد القديم في سفر الخروج:

(٦ ثم قال أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب. فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله ٧ فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم. إني علمت أوجاعهم ٨ فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبنا وعسلا.... والآن هو ذا صراخ بني اسرائيل قد أتى إلي ورأيت أيضا الضيقة التي يضايقهم بها المصريون. ٩فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون ونخرج شعبي بني اسرائيل من مصر١٠، ١١ فقال موسى من أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أخرج بني اسرائيل من مصر ١٢ فقال إني أكون معك وهذه تكون لك العلامة أني أرسلتك. حينما نخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل ١٣ فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم ١٤..... ١٥ وقال الله أيضا لموسى هكذا تقول لبني اسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري إلى دور فدور ١٦ اذهب واجمع شيوخ بني اسرائيل وقل لهم الرب إله آبائكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ظهر لي قائلا إني قد افتقدتكم وماصنع بكم في مصر ١٧ فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين و.... و..... إلى أرض تفيض لبنا وعسلا ١٨ فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بني اسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له الرب إله العبرانيين التقانا، فالآن نمضي سفر ثلاثة أيام في البرية، ونذبح للرب إلهنا ١٩ ولكني أعلم أن ملك مصر لايدعكم تمضون ولابيد قوية. ٢٠ فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبي التي أصنع فيها. وبعد ذلك يطلقكم ٢١ وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين. فيكون حينما تمضون أنكم لاتمضون فارغين ٢٢ بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم. فتسلبون المصريين)[٥٠]

رفاعة:

أما التطابق بين رواية عيسى عليه السلام في الموروث العقدي وفي الرواية أو الدنو منه فيأتي في الرواية على لسان رفاعة موضحا لقاءه بالجبلاوي في الخلاء ".... أمس عقب خروجي من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت برغبة في الانطلاق فقصدت الخلاء، مشيت في الظلام حتى تعبت، ثم اخترت مكانا أسفل سور البيت الكبير المشرف على الخلاء فجلست مسندا ظهري إلى السور، سمعت صوتا غريبا يتكلم كأنما كان يحدث نفسه فدهمني شعور مشرق بأنه صوت جدنا الجبلاوي..... سمعت الصوت وهو يقول: أما جبل فقد قام بمهمته، وكان عند حسن الظن به، ولكن الأمور ارتدت إلى أقبح مما كانت عليه، جدي سمعني وجاءني صوته قائلا..... والابن الحبيب ماذا يعمل؟ فسألته: وما حيلتي حيال أولئك الفتوات وأنا الضعيف؟ فأجابني " الضعيف هو الغبي الذي لايعرف سر قوته وأنا لاأحب الأغبياء "[٥١]

أما رسالة المسيح فهي التسامح والمحبة، وقد ورد هذا في مواضع عدة منها:

- تسامح رفاعة والبعد عن الأذى [٥٢]
- الحب الكبير لكل الخلق حتى من تؤذيه وتخونه وهي ياسمينة التي تعجبت من حبه لها:

" إني أحبك ياياسمينة، فلاح التعجب في عينيها وغمغمت: حقا؟، نعم: مامن مخلوق إلا وأحبه"[٥٣]

كما أن المحنة التي تعرض لها المسيح / رفاعة وقت الصلب والمذكورة تفصيليا في مزامير داود ترد هنا في الرواية بالروح العامة للمشهد في المزامير لحظة وشاية يهوذا الإسخريوطي به "... وانضم إلى الرجال دون كلام، وظلّت عينا رفاعة مرفوعتين نحو

البيت: ترى هل يدري جده بحاله؟ إن كلمة منه تستطيع أن تنقذه من مخالب هؤلاء الجبارين وترد عنه كيدهم، إنه قادر على أن يسمعهم صوته كما أسمعه إياه في هذا المكان، وجبل وجد نفسه في مأزق ثم نجا وانتصر"[٥٤]

ونستطيع أيضا أن نستنطق نص محفوظ لنعرف منه أي نص تحاور معه؛ فنجد من العهد القديم مزامير داود تسعفنا في ذلك:

" ١ليستجب لك الرب في يوم الضيق. ليرفعك اسم إله يعقوب ٢ ليرسل لك عونا من قدسه ومن صهيون ليعضدك ٣ ليذكر كل تقدماتك ويستسمن محرقاتك ٤ ليعطك حسب قلبك ويتمم كل رأيك.٥ تترنم بخلاصك وباسم إلهنا نرفع رايتنا ليكمل الرب كل سؤلك ٦ الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه يتسجيبه من سماء قدسه بجبروت خلاص يمينه ٧ هؤلاء بالمركبات وهؤلاء بالخيل. أما نحن فاسم الرب إلهنا نذكر.٨ هم جثوا وسقطوا أما نحن فقمنا وانتصبنا. ليستجب لنا الملك في يوم دعائنا)[٥٥]

قاسم:

أما قاسم فقد تجلى له "قنديل " في مكان عبادته وبين قنديل وجبريل تشابه في الوزن الصرفي لايخطئه القارئ، وكذلك التشابه في الحالة التي كان عليها النبي وقت نزول الوحي عليه من ارتجاف، وارتعاد، وترقب للآتي، وحالة قاسم وهو يخاطب زوجه قمر/ خديجة، وها هو قاسم يعترف لقمر بما اعتراه في نص موازٍ للنصوص التي تناولت هذه الواقعة:

" كنت جالسا أتابع سير الهلال الذي سرعان ما وارته السحب، وساد الظلام حتى فكرت في القيام؛ وإذا بصوت قريب يقول بغتة "مساء الخير ياقاسم" فارتعدت من وقع المفاجأة التي لم يسبقها صوت أو حركة، ورفعت رأسي فرأيت شبح رجل واقفا على بعد خطوة من مجلسي، لم أتبين وجهه، ولكنني ميَّزت لاسته البيضاء، والعباءة التي يتلفع بها، وقلت له وأنا أداري غيظي:مساء الخير من أنت، فقال لي: أنا قنديل خادم الجبلاوي "[٥٦]

وفي هذا يستوحي نجيب محفوظ النص التراثي الذي ورد مثله في كتب السيرة جميعا (..... عن عائشة أنها قالت: كان أول ما ابتدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يتحنث إلى أهله، ثم يرجع إلى أهله ليتزود بمثلها حتى فاجأه الحق فأتاه فقال: يامحمد: أنا جبريل وأنت رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجثوت لركبتي وأنا قائم ثم زحفت ترجف بوادري، ثم دخلت على خديجة فقلت: زملوني زملوني حتى ذهب عني الرّوع ثم أتاني فقال: يامحمد أنت رسول الله. قال: فلقد هممت أن أرمي نفسي من حالق من جبل، فتبدى لي حين هممت بذلك، فقال يامحمد أنا جبريل وأنت رسول الله، ثم قال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ، قال: فأخذني فغتني ثلاث مرات جتى بلغ مني الجهد ثم قال: "اقرأ باسم ربك الذي خلق "، فقرأت، فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي.....)[٥٧]

وكما كانت رسالة رفاعة التسامح والمحبة فإن رسالة قاسم رسالة عالمية كما يرد في قول أحد محاوريه له " لكن مهمتك شاقة يابني، إنها تخص الحارة كلها لاحيا من الأحياء "[٥٨]

إذن فالرمز هنا واضح تماما أنه يدنو من التطابق بين الجبلاوي والذات الإلاهية اسما " **الجبلاوي من جبل بمعنى خلق " وصفة أو صفات – كما سنرى – ومهمة تظهر في التكليف بالمهمات الصعبة / الرسالة التي تخص حيا من الأحياء (جبل ورفاعة)، أو تخص الحارة كلها كما في حالة قاسم.**

التطابق في الصفات بين الجبلاوي والموروث العقدي:

ولئن شف الرمز وقلت كثافته إلى درجة الشحوب فيما سبق بحيث أتاح الكاتب للقارئ الكشف السهل عن رموزه التي لم تكن عصية وأن يلمح أوجه التطابق الذي يكاد يكون كاملا بين شخصية الجبلاوي والذات الإلاهية فإننا نلحظ فيما يلي التطابق في صفات الذات الإلاهية بين ما أورده محفوظ والموروث العقدي وأولها صفة الحي، أو الباقي، أو الخالد أو الذي ليس كمثله شيء.فمثلا في الافتتاحية نرى الكاتب يقول على لسان إحدى شخصيات الرواية " وجدُّنا هذا لغز من الألغاز، عمَّر فوق ما يطمع الإنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره، واعتزل في بيته لكبره منذ عهد، فلم يره منذ اعتزاله أحد، وقصة اعتزاله وكبره مما يحير العقول "[٥٩]

ويجب ألا تخدعنا كلمة إنسان هنا أبدا فالرمز واضح شفاف لايحتمل اللبس؛ فأي إنسان هذا الذي يعيش في كل العصور؟ عصر آدم وذريته، وعصر جبل، وعصر رفاعة، وعصر قاسم يضاف إلى ذلك دور الجبلاوي في مقابلة كل منهم – كما رأينا – وإبلاغه برسالة واضحة الدلالة أنه مبعوث قومه لهدايتهم وإن اختلفت الوسيلة وتقنعت العبارات بالرموز الشفافة التي لاتخفى دلالتها على القارئ.

وإذا ملنا ببصرنا نحو النص القرآني القريب لما قاله نجيب محفوظ من وصف الجبلاوي بأنه لغز من الألغاز، وبأنه حيَّر العقول، لوجدنا أقرب النصوص إلى ذلك قوله تعالى "... ليس كمثله شيء وهو السميع البصير "[٦٠]، بل إن الإشارة تأتي صريحة بألفاظها ومعناها في قول القائل:"....قال إنه ليس كمثله أحد في حارتنا ولافي الناس جميعا "[٦١].

ومن اللافت للانتباه أن محفوظا لم يفرد للجبلاوي فصلا مستقلا كأدهم، أو جبل، أو رفاعة، أو القاسم ؛ وإنما الجبلاوي حاضر في كل الفصول، مهيمن على كل الشخصيات، باسط نفوذه ووقفه وعطاياه على كل الخلق منذ أدهم وحتى عرفة، ألا يدل ذلك على أنه الحي الباقي؟[٦٢]

ومن الإشارات التي وردت في الرواية صريحة إلى طول عمر الجبلاوي ما تقدم في بداياتها من استغراب أبناء أدهم لطول عمر الجد:" إننا أبناء أدهم، وما زال جدنا حيّا، أطال الله بقاءه "[٦٣]

وفي نهاية الرواية تأتي إشارتان إلى العمر الطويل اللافت للانتباه فيأتي القول على لسان إحدى الشخصيات:" لم أسمع عن معمَّر عاش طوال هذا العمر "[٦٤]، وفي موضع آخر نرى الراوي العليم يقول ".... لم يكن للناس من حديث إلا أمجاد الجبلاوي، قاهر الخلاء، وسيد الرجال، ورمز القوة والشجاعة، وصاحب الوقف والحارة، **والأب الأول للأجيال المتعاقبة"**[٦٥]. إذن فالجبلاوي هو الأب الأول للأجيال المتعاقبة وليس أدهم/آدم كما هو معروف؛ وإنما الأب أو ربما " الآب" هو المسئول عن هذا الخلق جميعا؛ "فالخلق عيال الله"[٦٦] كما ورد في الأثر.

وإذا ذهبنا لنتأمل بقية الصفات لوجدنا **صفة الجبروت** موافقة للموروث العقدي في قول محفوظ على لسان إحدى شخصياته " هذا البيت لم أشهد له مثيلا.... صاحبه جبار بلا جدال "[٦٧]

ومحبة الصدق والصادقين، وكراهية الملوثين غير الطاهرين "..... إني أمقت الكذب والخداع؛ ولذلك طردت من بيتي كل من لوث نفسه "[٦٨]

والعدل كذلك " إن الواقف لم يؤثركم بحبه ليعتدي بعضكم على بعض، فإما حياة تقوم على النظام، وإما فوضى لن تبقي منكم على أحد "[٦٩]

ومن صفاته كذلك أنه صاحب "الوصايا العشر" في الموروث الديني أو " الشروط العشرة "[٧٠] كما في الرواية.

وهو **رحيم**، **وقوى** " ما أعجب جدنا كان في قوة جبل، ورحمة رفاعة، واليوم له شأن آخر"[٧١]

شخصية الجبلاوى على لسان الراوى العليم:

ولئن كانت الصفات السابقة التي جلاها البحث مطابقة لما ورد في الموروث العقدي من صفات الألوهية على لسان شخصيات الرواية، فإن المحير حقا هذه الصفات الأخرى للجبلاوي وقد وردت على لسان الشخصيات في الرواية وتناقض تماما الصفات سالفة الذكر وكأن "الجبلاوي" فيه " لاهوت " و"ناسوت" يجمع بين صفات الإله وصفات البشر وأي بشر؟ إنهم قطاع الطرق، وقساة القلوب، بل والشواذ:

" أؤكد لك أن جدنا شخص شاذ لايستحق الاحترام، ولو كانت به ذرة خير ما جفا لحمه هذا الجفاء الغريب، إني أراه.... لعنة من لعنات الدهر"[٧٢]

وهو قاس جدا " وساءل أدهم نفسه: أيمكن أن تمضي الحياة على هذا النحو إلى الأبد؟ ولماذا أيقظت يأبي طموحنا إليك قبل أن ترتضي العفو لنا؟ وأي شيء يمكن أن يلين قلبك؟ إذا كان ذلك الزمن الطويل لم يلنه " [٧٣]

ثم تأتي الصفة التي يذهل لها القارئ ، وهي صفة قاطع الطريق:

" هذه الحارة المغرورة الجاهلة، ماذا تدري من الأمر؟ لاشيء ليس لديها إلا الحكايات والرباب وهيهات أن تعمل بما تسمع، ويظنون حارتهم قلب الدنيا، وما هي إلا مأوى البلطجية والمتسولين، وكانت في البدء مرتعا قفرا للحشرات حتى حل بها أكبر قاطع طريق وهو جدكم الواقف "[٧٤]

فكيف تستقيم تلك الصفات مع غيرها من صفات الرحمة والعدل والهدى وغيرها؟! وماهذا التناقض الذي وقع فيه أبطال الرواية في مشاعرهم تجاه الواقف؟!

إن كل ماسبق هو من صنع الراوي العليم الذي تجاوز الموروث العقدي؛ فسمح لنفسه أن يتدخل في قلب شخصية الجبلاوي فيسوق لها صفات، وينسب لها أفعالا تناسب ثقافة الراوي العليم واتجاهه الأيديولوجي.

ونستطيع أن نرصد من بداية الرواية التشكيك في شخصية الجبلاوي، وضعف تأثيره، واختفائه عن الرعية في كثير من الأحيان، والعزلة غير المبررة، والأساطير التي تروى عنه وأستطيع أن أقول باطمئنان إن هذه المواضع كلها تعني غياب الدين عن الناس، وانعدام تأثيره أو ضعفه ممثلا في شخصية الجبلاوي، وهي من نسج الراوي العليم ؛ فماذا نسج؟ وكيف نسج؟

- **التشكيك في وجود الجبلاوى:**

يبدو التشكيك في وجود الجبلاوي في أكثر من موضع في الرواية ففي فصل قاسم يرد على لسان إحدى الشخصيات " دعونا مما تقول الحكايات، لم يشهد أحد لقاء الجبلاوي وجبل، ولاالجبلاوي ورفاعة، تلك الأخبار تروى عادة، ولكن لم يشهدها أحد، غير أنها عادت بالخير على أصحابها، فصار لحي آل جبل كيانه المحترم، كذلك حي آل رفاعة، ومن حق حينا أن يكون مثلهما، لم لا كلنا من صلب ذلك الرجل المعتكف في بيته الكبير، ولكن علينا أن نأخذ الأمر بالحكمة والحذر "[٧٥]

ويأتي التشكيك كذلك في قول عويس وهو الموازي لنوفل عم السيدة خديجة " فاسترضاه عويس بابتسامة متكلفة وقال: أين هو جدنا؟ فليخرج إلى الحارة ولو محمولا على أعناق خدمه ثم يحقق شروط وقفه كما يشاء "[٧٦]

وها هو التشكيك في فصل "جبل" حين يدخل في حوار مع أحدهم فيقول:

- وصاني جدي بأهلي

- ولكنَّه جد الجميع يا جبل
- في هذا الكلام موضع نظر [٧٧]

وفي فصل رفاعة يأتي الحوار التالي بين شخصيتين عن صورة الجبلاوي المعلقة على الحائط:

- من صاحب هذه الصورة؟ فأجابت أم بخاطرها:
- الجبلاوي
- هل رآه أحد؟
- فقال جواد:
- كلا، لم يره أحد من جيلنا حتى جبل لم يتبينه في ظلمة الخلاء، ولكن المبيض رسمه على مثال ما يرد من أوصافه في الحكايات.[٧٨]

ويأتي التشكيك في وجود الجبلاوي في حوار بين ناظر الوقف وأحد الفتوات يدل على تعطل الدين وعدم التصديق والإيمان بالغيب فيقول عن رفاعة:

- وهل زعم حقا أنه اتصل بالواقف؟
- تأكد لدي ذلك من أكثر من مصدر، إن مرضاه يؤمنون بذلك ولو أنهم يتكتمون الأمر بحرص شديد.
- لعله مجنون، كما كان جبل دجالا، ولكن هذه الحارة القذرة تحب المجانين والدجالين، ماذا يريد آل جبل بعدما نهبوا الوقف بلاحق؟ لماذا لايتصل الواقف بأحد غيرهم؟ لماذا لايتصل بي وأنا أقرب الناس إليه؟ إنه قعيد حجرته..... لايراه أحد ولايرى هو إلا جاريته، ولكن ما أيسر أن يقابله آل جبل أو أن يسمعوه"[٧٩]

وبالإضافة إلى **التشكيك** في وجود الجبلاوي نلاحظ عدم **استجابته للنداء**، أو الدعاء طوال الرواية - اللهم إلا في صفحاتها الأولى - ليدلل على غياب دور الدين الكامل عن المجتمع وتخبط الناس إزاء هذا الغياب وتلهفهم إلى الرحمة والعدل وقضاء الحاجات التي لم تتحقق إلا في الفترات التي كان فيها المصلحون يؤدون أدوارهم المنوطة بهم بتكليف من الجبلاوي، وهذه الأمور من: التشكيك، وإبراز انعدام تأثير الدين ومظاهره من غياب دور الجبلاوي واختفائه وعزلته يسهم في إبراز دور الراوي العليم الذي يود أن يبسط لقارئه كل المقدمات التي تفضي إلى نتيجة واحدة لن نتعجلها حتى يفضي البحث إلى نهايته.

فهاهو دعبس في فصل جبل يرفع نداءه مستجيرا مستغيثا إلى الجبلاوي وليس ثمة إجابة "...فرفع دعبس رأسه وصاح بصوت كالرعد: ياجبلاوي ! تعال شف حالنا، تركتنا تحت رحمة من لا رحمة لهم.... دوى الصوت قويا حتى خيل للبعض أنه سيبلغ الجد في بيته ..... ياجبلاوي"[٨٠]

أما رفاعة فيناديه ويلحف في النداء وهو في مأزق شديد يوازي حادثة الصلب التي واجهها المسيح وكشفت عنها المزامير ".... وانضم إلى الرجال دون كلام، وظلت عينا رفاعة مرفوعتين نحو البيت، ترى هل يدري جده بحاله؟ إن كلمة منه تستطيع أن تنقذه من مخالب هؤلاء الجبارين ، وترد عنه كيدهم، إنه قادر على أن يسمعهم صوته كما أسمعه إياه في هذا المكان"[٨١]

ويستمر النداء أو الدعاء عبر كل الفصول وما من مجيب حتى فصل عرفة الذي مات فيه الجبلاوي المثير للجدل فهاهو شكرون يقف "..... مستقبلا بيت الواقف في نهاية الحارة وصاح:ياجبلاوي، ياجبلاوي، والتفتت نحوه الأعين، وعاد شكرون يصيح:

ياجبلاوي: حتى متى تلازم الصمت والاختفاء؟ وصاياك مهملة، وأموالك مضيعة، أنت في الواقع تسرق كما يسرق أحفادك ياجبلاوي "[٨٢]

ويبلغ اليأس من الدين ممثلا في الجبلاوي منتهاه في فصل عرفة حين ينادي الرعية الجبلاوي ولايجدون إلا الصدى فيتشككون ويضجرون كما يبدو من قول القائل " جدنا الواقف؟ كل مغلوب على أمره يصيح كما صاح المرحوم أبوك: ياجبلاوي، ولكن هل سمعت عن أحفاد مثلنا لايرون جدهم وهم يعيشون حول بيته المغلق؟ وهل سمعت عن واقف يعبث العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لايحرك ساكنا "[٨٣]

- **<u>سلبية الجبلاوى رامزة إلى ضعف الدين:</u>**

سبق أن رأينا كيف أن **الراوي العليم** لم يدخر وسعا في إظهار الجبلاوي الرمز بمظهر **المنعزل حينا، والغائب حينا، والمختفي أحيانا، والضعيف المهزوم** في كثير من الأحايين موردا ذلك على لسان شخصياته الرئيسة منها والثانوية على حد سواء، يريد من ذلك أن يظهر تهافت دور الدين، وقلة تأثيره في النفوس، وأنه وجد لفترات محدودة في تاريخ الإنسانية حُدِّدت بوجود أولئك المصلحين الذين يمكنهم أن يوجدوا في كل زمان ومكان، ثم تعود الدنيا إلى حالها بعد رحيلهم ؛ فليس المنهج إذن هو الذي يحكم الحياة أغاب المصلح أم عاش !

وتأتي سلبية الجبلاوي، وقلة تأثيره، وغيابه منثورة في كل فصول الرواية على طولها، وامتدادها، ويحلو للكاتب أن يعبر عن هذه الحيرة، والاختفاء بين الحين والآخر في الرواية ممثلا في فصل جبل فيقول الراوي العليم على لسان إحدى شخصياته: ".... وحارتنا لم تعرف يوما العدالة أو السلام، هذا ما قضي به عليها منذ أن طرد أدهم وأميمة من البيت، ألا تعلم بذلك ياجبلاوي؟ ويبدو أن الظلم ستشتد كثافته كلما طال بك السكوت فحتى متى تسكت ياجبلاوي "[٨٤]

وفي حوار بين ياسمينة والفتوة الذي يعاشرها يقر الأخير بضعف الدين وبموت الجبلاوي على سبيل المجاز " الواقف ميت أو في حكم الميت يا أولاد الكلب "[٨٥]

وعن اختفاء الجبلاوي وانعدام تأثيره يكون هذا الحوار في فصل جبل:

- لكنه قابل جبل وكلّمه.
- نعم، ولما مات جبل جاء زنفل ثم خنفس وكأننا يا بدر لارحنا ولاجينا [٨٦]

والجبلاوي مختف – كما سلف – أو في عزلة "وشهدت أيضا جدنا العظيم وهو يجوب هذه الآفاق يمتلك مايشاء ويرهب الأشقياء، ترى كيف حاله الآن في عزلته؟"[٨٧]

وعن ضعف تأثير الدين في النفوس يرد في فصل قاسم " لكنه طعن في السن، وخفَّت خشيته كهذه الشمس المائلة نحو الأفق، أين أنت؟ وكيف أنت؟ ولم تبدو وكأنك لم تعد أنت؟"[٨٨]

ثم ينتهي الراوي العليم إلى ما انتهى إليه ماركس بأن الدين أفيون الشعوب، وأنه مادام آفة حارتنا النسيان فإن مابقي من جبل ورفاعة وقاسم لن يكون إلا حكايات يتغنى بها المساطيل في خلواتهم !! فما أشقاه من مصير للدين:

"..... لم يعد جبل، ورفاعة، وقاسم إلا أسماء وأغاني ينشدها شعراء المقاهي المسطولون " وهذا هو رأيه في الدين الذي ضعف وتلاشى ولم يعد له من تأثير وأن على البشرية أن تلتمس لها طريقا غيره؛ فعلى مايبدو يرى الراوي العليم أن البشرية جبلت على الشر وأنها سرعان ما ترتد على أعقابها بعد أن يأتي إليها ملهم أو مصلح وهو ما يعبر عنه محفوظ في هذه الفقرة:

" في كل شبر من هذه الحارة تجد دليلا على وجود الفتوات، ولكنك لن تجد دليلا واحدا على وجود أناس مثل جبل أو رفاعة أو قاسم "[٨٩]

وبانسحاب الجبلاوي من الحياة، وضعفه، ارتكب جريمة في حق الرعية كما يراه الراوي العليم: " إنه نائم الآن غير دار بجريمته"[٩٠]

وأستطيع أن أخلص إلى أن محفوظا قد مزج في الرواية بين الموروث العقدي المتمثل فيما ذكرت في السابق وبين المادة الخام الصرف التي ابتدعها هو وساقها على ألسنة شخصياته فخرج لنا هذا المزيج الفريد بين ما ينتمي للموروث، وما ينتمي حقا للكاتب وأيديولوجيته وقد سيق على لسان راويه العليم، ولئن وضح بما لايدع مجالا للشك أنه يعني بالجبلاوي الذات الإلاهية في مواضع عدة في الرواية أجملتها في الأسطر السابقة فإنني أرى أنه يعني بشخصية الجبلاوي الدين نفسه وما آل إليه من ضعف تأثير في النفوس بعد رحيل الأنبياء ذوي التأثير المحدود في البشرية – كما صورت الرواية – فقد صور محفوظ الأنبياء مصلحين فيهم ما في المصلحين من خير، وما في البشر من حب النساء، ومقارعة الشهوات، كما في تصويره لقاسم الذي يرمز لشخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم[٩١]

رابعا: حوار مع ناقد

وأظن أنه قد يحسن للباحثة وقد بسط منظورها الخاص في بحثها أن تحاور ناقدا درس محفوظا وخالفه الباحث فيما رآه مع احترام وجهة نظره وجهده المحترم فيما قدم.

لقد قدم الدكتور أبو القاسم أحمد رشوان دراسة محترمة بعنوان " أولاد حارتنا – أدهم – جبل – قاسم - قراءة في المصادر "[٩٢] ويبدو من العنوان عنايته بالشخصيات الثلاث التي رأى مع غيره من النقاد أنهم رموز للأنبياء، وأن الكاتب استلهم حياة الأنبياء بكل تفاصيلها وعاد إلى مصادر تراثية عدة تبين هذا الاستلهام بجلاء؛ غير أن الدكتور أبوالقاسم رشوان رأى في نجيب محفوظ إماما للدعاة وصدّر كتابه بهذا الإهداء:

" إلى إمام الدعاة، حامل مشعل العلم، ويقين الإيمان، وهموم الإنسان، الفيلسوف، الأديب، الفنان. وتلك عناصر عبقريته وسر وجوده وخلوده "[٩٣]

إذن فقد وضع الناقد الدكتور لنفسه منظورا خاصا به يرى به الكاتب من موقع المحب المنبهر بما يكتب – وهو مستحق لذلك – قبل أن يخط سطرا في مؤلفه القيم.

وقد رأى الدكتور أبو القاسم أحمد رشوان أن نجيب محفوظ استلهم حياة الأنبياء حقا ولكنه صور جوانب من حياتهم تبين أنهم بشر يحيون كغيرهم ؛ وتناثرت وجهة نظره هذه في فصول كتابه ومن ذلك قوله: " وفي هذه الرواية استدعى الكاتب الموروث الديني والثقافي ومزجه بتراب الحارة المصرية، وثقافتها، وعاداتها، ورجالها، ونسائها، وسموها، وانحطاطها مستغلا بشرية الرسل التي أغفلها كثير من الكتاب، فأسبغوا عليهم من الفعال والأساطير والقداسات التي ليست لهم، وصلت ببعض المتنطعين حد الشرك متناسين تحذيرات القرآن وتأكيده على بشرية الرسل... لقد صدق الناس مدائح الشعراء في وصف الأنبياء واعتبروها حقائق "[٩٤]

وكما أسلفت فإن هذا الرأي يتناثر في فصول الرسالة ، وأرى أن الدكتور الفاضل يُعد ماذكره محفوظ عن خطايا الشخصيات (جبل، ورفاعة، وقاسم)،وهي خطايا فظيعة، عملا بشريا؛ فهل التحرش ، وشرب الخمر، ومغازلة النساء... وسائر الكوارث الأخلاقية التي اقترفتها الشخصيات السابقة تنسجم مع ميراث الأنبياء الأخلاقي الرفيع الذي فصل القول فيه القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى:

- " واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا " مريم ٤١
- " واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا " مريم ٥١

- " واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا "٥٤ مريم
- " وإنك لعلى خلق عظيم " القلم ٤
- "....وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة " آل عمران ١٦١
- " ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين " الأحزاب ٤٠

وهذه الآيات الكريمات غيض من فيض تناهى في ذكر أخلاق الرسل والأنبياء باعتبار بشريتهم أيضا، لاباعتبار تقديسهم ورفعهم إلى مصاف الآلهة، لكن ما أتى به نجيب محفوظ ووافقه فيه الدكتور رشوان باعتبار بشرية الرسل يتفق تماما مع نصوص العهد القديم التي رمت أنبياء الله بكل نقيصة من زنى، وشرب الخمر، وسرقة، ونهب، وخداع؛ فهل كل ماسبق وما سأورد له أمثلة من أفعال الأنبياء؟ وهل فعلوا كل ذلك باعتبار بشريتهم التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق أم بتلك البشرية الناقصة المرذولة التي لاتتورع عن أفعال أعتى المجرمين؟ إن بشرية الرسل بشرية معصومة تدنو من الكمال الإنساني؛ فهم يأكلون الطعام نعم ويمشون في الأسواق ولكنهم معصومون مترفعون عن الدنايا والرذائل، ولعل الأمثلة الآتية تقربنا من تأمل تلك الأخلاق الغريبة عن مقام الرسل المعصومين:

- (٢٠ للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لاتقرض بربا لكي يباركك الرب إلهك في كل ماتمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل لتمتلكها) مثال لاستباحة الربا في حق غير اليهودي ![٩٥]
- (٧ فتنجدوا على مديان وقتلوا كل ذكر ٨ وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم.....٩ وسبى بنو اسرائيل نساء مديان ونهبوا جميع بهائمهم.... ١٠ وأحرقوا جميع مدنهم)[٩٦] وهذا مثال على الأوامر الإلهية بالقتل، والنهب، والسلب !!
- ونرى النذير يشرب الخمر، مع ملاحظة أن ذكر الخمر في العهد القديم كثير جدا (وبعد ذلك يشرب النذير خمرا)[٩٧]
- وزنى الأنبياء في العهد القديم شيء عادي جدا فهذا هو ابن سيدنا يعقوب – في كتابهم – يدخل على زانية[٩٨] سفر التكوين ٣٨: ١٥،١٦
- وفي التكوين تلك الرواية المشهورة عن ابنتي لوط (٣٠ وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل هو وابنتاه ٣١ وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ٣٢ هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه. فنحيي من أبينا نسلا..... ٣٦ فحبلت ابنتا لوط من أبيهما)[٩٩]
- وفي سفر صموئيل الثاني نرى النبي داود يرقص، ويوزع الخمر كذلك (١٦ ولما دخل تابوت الرب مدينة داود أشرفت ميكال بنت شاول من الكوة ورأت الملك يطفر ويرقص أمام الرب فاحتقرته من قلبها)[١٠٠] (١٩ وقسم على جميع الشعب..... رغيف خبز وكأس خمر وقرص زبيب)[١٠١]
- وفي السفر نفسه صموئيل نسب إلى داود الزنا (٣ وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم.... ٣ فأرسل داود وسأل عن المرأة..... ٤ فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها)[١٠٢]
- أما هذا الفعل (الزنا) فقد قبح في عيني الرب كما ورد في السفر نفسه صمويل (٣٧..... وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب)[١٠٣]
- وفي سفر حزقيال[١٠٤] يرد فعل الزنا منسوبا إلى الأنبياء (حزقيال) بالتحديد.

ويضيق المقام حقا في تتبع الحديث المتطهر عن الأنبياء في القرآن الكريم، والحديث عن بعض أفعال الأنبياء في العهد القديم؛ فضلا عن عدم اختصاص البحث بذلك؛ وإنما أحببت أن أناقش أستاذي الدكتور أبوالقاسم رشوان في فكرة واحدة بينها وبين موضوع البحث تماس.

سادسا: خاتمة البحث:

فقد وقع هذا البحث المعنون ب "جبلاوي "أولاد حارتنا " بين الراوي العليم والموروث العقدي " في مقدمة، وتمهيد، ومبحث أساسي هو شخصية الجبلاوي بين استلهام الراوي للموروث العقدي المعروف، وابتداع مادة خام من فكر الراوي وأيديولوجيته تلك الأيديولوجية التي استخلصت من هذه الرواية وهي عدم اقتناعه بالدين مخلصا لأولاد حارته الكونية، وعدم اقتناعه بأن العلم يمكنه أن يخلص الإنسان، وأنه ينبغي على الإنسان البحث بنفسه عن خلاصه في قيم جديدة، وقد اتخذ محفوظ من الراوي قناعا له بغيه توجيه مسار القيم في بلاده إلى وجهة يرضاها.

فبينت في **المقدمة** الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذا البحث؛ وهو أنني أعدت قراءة أولاد حارتنا بعد حين من القراءة الأولى فثارت أسئلة نقدية جديدة فالتمست الإجابة عنها في كتابات العديد من النقاد، فلم أهتد إلى أنهم اجتمعوا على كلمة سواء، بل بدت آراؤهم شديدة التناقض في معظمها رغم رجوعهم إلى مناهج نقدية معيارية.

واستكمالا للجانب المعلوماتي فقد اهتممت في **التمهيد** بعرض بعض المعلومات الضرورية عن الرواية، وعرض لبعض جوانب الحركة النقدية حول هذا العمل المثير للجدل.

وبالرغم من اتفاق النقاد حول استلهام نجيب محفوظ لسير الأنبياء فإنهم اختلفوا اختلافا شديدا حول ماهية الجبلاوي؛ وهي الشخصية التي لم يُفرد لها بحث مستقل في حدود علمي فوجهت اهتمامي لبحث الشخصية في إطار من المرجعية التراثية التي استلهمها محفوظ، وفي ضوء تقنية قصصية نقدية هي تقنية الراوي العليم.

فجاء القسم الثالث والرئيس من البحث ليبحث في شخصية الجبلاوي بين الموروث العقدي، والراوي العليم، وقد استلهم نجيب محفوظ الموروث العقدي في رسمه لشخصية الجبلاوي ملامح تدنو به من التطابق مع ذلك الموروث منها:

- اسم الجبلاوي
- صفاته من عدل، ورحمة، ومحبة، وعمر طويل جدا، وتفرده عن جميع الخلق، وقوة، وجبروت.
- مهمته العظمى في تكليف الرسل والأنبياء.

أما تقنية الراوي العليم الذي اتخذ منه نجيب محفوظ قناعا له؛ فإن البحث يبين أن الراوي أعمل منظوره الخاص فخرج عن مسار حياة الأنبياء مبتدعا مادة جديدة من فكره وأيديولوجيته؛ ليعيد بناء منظومة القيم في مجتمعه، ذلك المجتمع الذي اهتم كثيرا بأن يرصد ملامحه، ويبين عوراته في كثير من أعماله، وخصوصا تلك التي تتصل بمرحلته الواقعية.

وهذا الراوي العليم أظهر للقارئ شخصية الجبلاوي من منظور يخالف منظور الموروث العقائدي فبين أنه شخصية:

- قاطع طريق، وشاذ من شذاذ الآفاق.
- سلبية
- ضعيفة
- لاوجود لها ولاتحقق في كثير من الأحيان.

وبتأمل ملامح شخصية الجبلاوي بين الموروث العقدي والراوي العليم تبين لي أن الروائي وقد تقنع بشخصية الراوي العليم أظهرمن خلال منظوره الخاص: أن الدين لم يفلح في هداية البشرية، وأن العلم كذلك ممثلا في " عرفة " لم يجلب للبشرية سوى الخراب والدمار، وأنه على البشرية أن تبحث عن خلاصها في طريق ثالث: ترى هل هو التعادل بين العلم والدين؟ أم نبذ كلا الطريقين وارتياد أفق جديد قد يظهره باحث جديد في بحث جديد.

Abstract

Children of Gebelawi's Protagonist, the Omniscient Narrator and the Inherited Faith

By Azza Mohamed Abul Naga

Headlined "*Children of Gebelawi*, the Omniscient Narrator and the Inherited Faith," this study consists of an introduction, a preface and thesis. The main topic thereof is the character of Gebelawi, which incorporates the inspired inherited faith and -- in the meantime -- creates a raw material from the narrator's ideology and thinking. For Mahfouz, the character of Gebelawi was a mask that he used to put the values of his country in the direction that he saw was true and satisfactory to himself.

In the **introduction**, I mentioned the reasons that motivated me to write this study; And what motivated to write this study was that I reread the *Children of Gebelawi* for a second time, a while after the first reading; That second reading raised new critical questions, that I sought answers for in the writings of many critics. However, I concluded that they have not ever reached consensus on the issue; most of their opinions seemed very contradictory, in spite of its being based on standard methods of criticism.

In the **preface**, I was keen to give some necessary information about the novel, as well as some aspects of the critical works that discussed this controversial novel.

Although the critics agree that the history of prophets had inspired Naguib Mahfouz, they had many disagreements over the nature of Gebelawi. To my knowledge, there is no independent research that is dedicated to the character of Gebelawi; thus, I focused my work in studying the character within the framework of the hereditary reference that inspired Mahfouz, and in the light of a critical narrative technique -- the omniscient narrator.

The third section of the study, which is the main section as well, discusses the character of Gebelawi from both the inherited faith and the omniscient narrator perspectives. Mahfouz used the inherited faith to portray the character of Gebelawi in a way that conforms to that inherited faith:

- The name of Gebelawi
- His good qualities (justice, mercy, charity, long-living, distinct good manners, power, and strength).
- His great mission of sending missionaries and prophets).

Regarding the omniscient narrator technique, the mask under which Mahfouz disguised, this study shows that the narrator has incorporated his own thinking, and deviated thereby from the path of the lives of prophets. Thus, the narrator has created a new raw material from his own thinking and ideologies in order to rebuild the string of values in his own society. The author has for long been interested in studying his society, and uncovering the cons thereof in many of his works, especially the contemporary ones at his time.

That omniscient narrator has portrayed Gebelawi from another perspective that contradicts with the inherited faith; He portrays the protagonist as a mugger, aberrant, passive and weak individual.

After I contemplated the character of Gebelawi from the two perspectives -- the inherited faith and the omniscient narrator -- I concluded that the novelist is disguised in the omniscient narrator's mask through his own perspective: religion did not manage to guide the humanity to goodness; knowledge and sciences as well -- portrayed in the character of Arafa -- have only brought devastation and destruction to humanity; thus, humanity should seek a new way for salvation. Could this new way be the equilibrium between knowledge and sciences on one hand, and religion on the other hand? Or it could be to discard both religion and knowledge, and to find new horizons through new studies?

المصادر والمراجع

[١]- انظر على سبيل المثال: مقال "أولاد حارتنا رواية وليست نصا دينيا": أحمد عبد المعطي حجازي،مجلة الإذاعة والتليفزيون،١٩٨٩/٢/١١، ومقال (أولاد حارتنا ومشكلة سوء الفهم) أحمد صابرة: كلية الآداب، جامعة الإسكندرية

[٢]- البلاغة والأسلوبية: د.محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤،ص١٣٦

[٣]- مفارقات الشعرية: د. محمد فتوح أحمد، دار غريب، القاهرة،٢٠٠٩،ص١٠٨

[٤]- انظر الحوار التليفزيوني الذي بث في أواخر الثمانينيات

[٥]- رواية "أولاد حارتنا": نجيب محفوظ،دار الشروق، القاهرة،الطبعة التسعة،٢٠١١ صفحة الغلاف الأخيرة، ضمن الكلمة التي كتبها محمد سليم العوا.

[٦]- عشرة أدباء يتحدثون: فؤاد دوّارة، كتاب الهلال، القاهرة، يولية ١٩٦٥،ص٢٨٣-٢٨٤

[٧]- أولاد حارتنا لنجيب محفوظ – محاولة لتفسير بعض رموزها: د. الطاهر أحمد مكي، عالم الكتاب، ٩٥

[٨]-نص قرار الأكاديمية السويدية بمنح نجيب محفوظ جائزة نوبل ١٩٨٨، مجلة أدب ونقد، عدد ٧٥، نوفمبر ١٩٩١

[٩]- قراءة نقدية لرواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ: هادي رزاق الخزرجي، جامعة الكوفة، كلية الآداب، عام، ص٥٤٩

[١٠]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[١١]- شفرات النص –دراسة سيميولوجية في شعرية القص والقصيد: د.صلاح فضل، سلسلة كتابات نقدية٨٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٩،ص٢٧٣

[١٢]- "أولاد حارتنا" والتأليف على غير مثال سابق: د.حامد أبو أحمد،مجلة الأدباء،العدد الثالث،يوليو٢٠٠٧،ص١٥

[١٣]- أولاد حارتنا لنجيب محفوظ محاولة لتفسير بعض رموزها:دالطاهر أحمد مكي (مرجع سبق)ص٩٥

[١٤]- "أولاد حارتنا" بين أيدي نقادها، غادة الريدي، مجلة إبداع،العدد ٢٠، خريف ٢٠١١،ص٥٦

[١٥]- فتوى نقدية في أولاد حارتنا: أمثولة الحق والعدالة: د.صلاح فضل مجلة الإذاعة والتليفزيون ١١-٢-١٩٨٩،ص٢٠

[١٦]- "أولاد حارتنا" بين الإبداع الأدبي والنّص الديني: طلعت رضوان،ص١٤١

[١٧]- المرجع السابق:ص١٤٣

[١٨]- نجيب محفوظ بين التاريخ والفن..أولاد حارتنا نموذجا: محمد قطب، الملف الثاني، مجلة الرواية قضايا وآفاق،ص١٦٠

[١٩]- تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج النبيوي: د يمنى العيد، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٠،ص١٨٣

[٢٠]- الراوي في روايات نجيب محفوظ: د نجاة على، كتاب الهلال سبتمبر ٢٠١٧، دار الهلال، القاهرة، ص١٦٥

[٢١]- الراوي والنص القصصي: د عبد الرحيم الكردي، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٦، ص١٣

[٢٢]- تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي: د.يمنى العيد (مرجه سبق)ص١٧٥
[٢٣]- الراوي والنص القصصي: د. عبد الرحيم الكردي (مرجع سبق) ص٢٣
[٢٤]- الراوي: الموقع والشكل: د. يمنى العيد، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦، صفحة الغلاف الاخير.
[٢٥]- الراوي في روايات نجيب محفوظ: د. يمنى العيد، مرجع سبق،ص ٤٠
[٢٦]- الراوي والنص القصص: د.عبد الرحيم الكردي (مرجع سبق)ص ٩-١١
[٢٧]- المرجع السابق: ٢٧-٥٧
[٢٨]- الراوي والنص القصصي (مرجع سبق):ص٥٦
[٢٩]- السابق:ص٥٧
[٣٠]- نفسه:ص٥٧
[٣١]- الراوي في روايات نجيب محفوظ: د.نجاة علي (مرجع سبق)ص٥٨،٥٦
[٣٢]- الراوي والفن القصصي: د. عبد الرحيم الكردي (مرجع سبق)ص٧٧-١٤٢
[٣٣]- المرجع السابق ص١٥
[٣٤]- الراوي في روايات نجيب محفوظ: د. نجاة علي (مرجع سبق) ص٤٠
[٣٥]- الراوي في روايات نجيب محفوظ: د. نجاة علي :ص٤٦
[٣٦]- السابق:ص٥٠
[٣٧]- نفسه:ص٥٧
[٣٨]- الراوي في روايات نجيب محفوظ (مرجع سبق):ص١٨٩
[٣٩]- الراوي والنص القصصي:د.عبد الرحيم الكردي، مرجع سبق،ص١٠٨
[٤٠]- أولاد حارتنا: ص١١
[٤١]- الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح الأول
[٤٢]- أولاد حارتنا:ص٧
[٤٣]- المصدر السابق: ص١٨٦
[٤٤]- سورة الشورى: ١١
[٤٥]- أولاد حارتنا:ص١٢
[٤٦]- البقرة: ٣٠
[٤٧]- أولاد حارتنا،ص١٨٦
[٤٨]- الأعراف ١٤٣
[٤٩]المصدر السابق،ص١٨٨
[٥٠]- الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر الخروج ٣،٤
[٥١]- أولاد حارتنا ،ص ٢٥٨-٢٦٠
[٥٢]- أولاد حارتنا،٢٦٣
٥٣- السابق،ص٢٧٢

[٥٤]- أولاد حارتنا ،ص٣٠٩
[٥٥]- الكتاب المقدس: العهد القديم، مزامير داود، المزمور العشرون
[٥٦]- أولاد حارتنا،ص٣١٦
[٥٧]- تاريخ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري،(٢٢٤-٣١٠هـ، بيت الأفكار الدولية، المملكة السعودية،الرياض،ص ٣٠٩
[٥٨]- نفسه،٣٧٩
[٥٩]- أولاد حارتنا (مصدر سبق)،ص٧
[٦٠]- الشورى:١١
[٦١]أولاد حارتنا:ص١٨٦
[٦٢]- أولاد حارتنا، ص١٨٦
[٦٣]- أولاد حارتنا،ص١٣٦
[٦٤]- السابق،ص٥٠٥
[٦٥]- أولاد حارتنا :ص ٥٢٥

[٦٦]- حديث شريف عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (الخلق كلهم عيال الله، وأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله) رواه البزار والطبراني : معجم الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني.ت ٣٦٠
[٦٧]- أولاد حارتنا،ص٧٤
[٦٨]- السابق،ص ٩٤
[٦٩]- نفسه:، ص٢١٩
[٧٠]- نفسه، ص ٥٠٩
[٧١]- نفسه، ص ٣٧٩
[٧٢]- أولاد حارتنا، ص٧٦
[٧٣]- السابق، ص٩٨
[٧٤]- نفسه، ص٥٢١
[٧٥]- أولاد حارتنا،ص٣٧٤
[٧٦]- السابق،ص ٣٧٦
[٧٧]- نفسه،ص٢١٤
[٧٨]- نفسه، ص٢٤٠
[٧٩]- نفسه،ص٢٨٨
[٨٠]- أولاد حارتنا،ص١٣٢
[٨١]- السابق،ص ٣٠٩
[٨٢]- السابق، ص٤٩٦
[٨٣]- نفسه،ص٥٠٥
[٨٤]- أولاد حارتنا،ص١٤٢
[٨٥]- أولاد حارتنا ،ص٢٨٧
[٨٦]- السابق ،ص٢٤١
[٨٧]- نفسه ،ص ٣٢٣
[٨٨]- نفسه،ص٤٢٩
[٨٩]نفسه،ص٤٧٥
[٩٠]- أولاد حارتنا،ص٥١٥
[٩١]- انظر وصف محفوظ لقاسم (... ورأى فيه الجرابيع طرازا من الرجال لم يوجد مثله، جمع بين القوة، والرقة، والحكمة، والبساطة، والمهابة، والمحبة، والسيادة والتواضع، وإلى ذلك كله كان ظريفا بشوشا أنيقا وحشّاشا يلذ مجلسه، وعشيرا تطيب مودته، فضلا عن ذوقه الجميل، وحبه للغناء، والنكتة، لم يتغير من شأنه شيء إلا أنه توسع في حياته الزوجية، كأنما جرى فيها مجراه في تجديد الوقف وتنميته، فعلى حبه بدرية تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة، وتعشق امرأة من الجرابيع،ثم تزوج منها أيضا. قال أناس في ذلك: إنه يبحث عن شيء افتقده منذ فقد زوجته الأولى قمر، وقال عمه زكريا: إنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا، لكن حارتنا لم تكن بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث بل الحق إنها إذا كانت أعجبت به لأخلاقه مرة، فقد أعجبت به لحيويته وحبه النسوان مرات، وإن حب النسوان في حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون، ومنزلة تعدل في درجاتها الفتونة أو تزيد " الرواية ٤٦٥
[٩٢]- أولاد حارتنا (أدهم – جبل – قاسم) قراءة في المصادر: د.أبو القاسم أحمد رشوان، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ٢٠١٧
[٩٣]- أولاد حارتنا –قراءة في المصادر: د. أبوالقاسم أحمد رشوان (مرجع سبق) ص٥
[٩٤]- المرجع السابق : ص١٤٣، ومثل ١٧٨، وص ٢٠٩
[٩٥]- العهد القديم: سفر التثنية ٣٣،٣٤
[٩٦] - المصدر السابق، سفر العدد ٣٠،٣١
[٩٧]- العهد القديم: سفر العدد ٧،٨
[٩٨]- المصر السابق: سفر التكوين ٣٨ – ١٥،١٦
[٩٩]- المصدر السابق: سفر التكوين ١٩،٢٠
[١٠٠]- نفسه: صموئيل الثاني ٦،٧
[١٠١]نفسه: نفسه
[١٠٢]نفسه: صموئيل ١١
[١٠٣]- نفسه صموئيل ١١،١٣
[١٠٤]- نفسه: حزقيال ١٦